الطرق العمليـــة للتصوف

بقلم: الدكتور
مصطفى كمال وصفى
المستشار المساعد بمجلس الدولة

• من المعلوم أن الايمان تصديق وتسليم واعتقاد . وأنه ينصب على أمور غيبية لاتدركها الحواس . فالله وملائكته وصدق الكتب والرسل من أمور الغيب التى هى محل للايمان ولا تدركها الحواس .

وبسبب أن الايمان لا تدركه الحواس ، فإنه فى الواقع يعتمد على سلامة القلب وحسن استعداده للتسليم والتصديق . ولذلك تستهدف الصوفية تربية القلب على السلامة ، وتنقيته مما يمنع تصديقه وتسليمه .

• ومن المشاهد أن القلب السليم الفطير لا يمتنع عليه التصديق والتسليم أما القلب الذى تعلق بالاهواء والأطماع والشهوات ، فهو محجوب عن الايمان بالله الذى لايحسه ، بالمصالح العملية التى تستغرق حواسه ولذلك فقد كانت أولى الطرق العملية التى يعنى بها التصوف هى تنقية القلب من هذه الحجب ، واخراج ماسوى الله منه .

فإذا تنقى القلب من هذه الحجب وشف من السوى ، عمدت الصوفية إلى توجيه المريد إلى الطريقة السليمة المثلى التى يشق بها طريقه فى الحياة بما يرضى الله . وأرشاده إلى أفضل المثل وأرقاها . ولما كان الانسان بطبيعته محدود عن التجريد والاطلاق، لايفهم المثاليات المجردة والمعنويات المطلقة ، فإن الطريقة العمليه التى تنتهجها الصوفية فى ذلك هى توجيه الناس إلى أسوة محددة ونموذج واضح حتى ينتقلوا من المحسوس إلى المطلق المجرد . وقد اقتضى الدين فى ذلك أن تتخذ رسول الله أسوة حسنة . ومن لم ير رسول الله فلا أقل من أن يبدأ بالاقتداء بمن يقتدى بالرسول ، حتى يستطيع

أن يتدرج من ذلك إلى الاقتداء بالرسول نفسه ، ومن ذلك إلى تعشق المثل العليا فى ذاتها ، وعبادتها لجمالها ، وكمالها على إطلاقها ، وهذه المثل العليا هى الله سبحانه وتعالى . فالله هو مثل المثل « ولله المثل الأعلى » (الآية) فيستقيم له بذلك معرفة الله ومحبته .

والبلوغ إلى هذه الغاية العسيرة يتطلب سياسة خاصة للمريد وما يفلح مع بعض الناس قد لا يفلح مع بعضهم الآخر لاختلاف ظروفهم وطبائعهم ، ولذلك عنت الصوفية بأن يتخير المرشد للمريد ما يناسبه من الطرق العملية ، وبذلك تعددت مناهجها وطرقها ، حتى تلائم مختلف الطبائع والظروف .

هذه هى الأصول الثلاثة التى تنهض عليها الطرق العملية للتصوف وهى ملخصة فيما يلى :

١ — تنقية القلب من الحجب وماسوى الله .

٢ — اتخاذ الاسوة الصالحة للوصول إلى ادراك المثل المجردة .

٣ — تعدد المناهج والطرق بسبب طبائع الناس .

الاصل الأول :

تنقية القلب من الحجب :

من المعلوم أن الحجب ثلاثة (١) الاهواء والشهوات (٢) الاطماع وحب المال (٣) اعجاب الإنسان بنفسه والكبرياء .

فمادام القلب مشغولا بأحد هذه الحجب — وهو لابد كذلك — فإن الطريق إلى الله لا يكون واضحا . ويتجه الفكر والقلب دائما إلى الانحراف نحو هذه الاهداف للنيل منها .

فالقلب فى هذه الحالة يكون كالمنظار المنحرف أو المرآة المنبعجة . لا تظهر المرئيات على حقيقتها . ولذلك فإذا جودل الإنسان فى الله وهو على هذه الحالة لا يلبث أن يجادل بالباطل . ولا ينفك إلى أن ينتهى إلى الكفر بالله لإيمانه بالحجاب الذى يشغله .

ويتعين أولا تحرير القلب من هذه الانحرافات ليبصر طريقه إلى الله واضحا مستقيما ويرى الحق حقا فيتبعه والباطل باطلا فيجتنبه .

ولما كان الإنسان ينفق جهده ووقته وماله فى الغاية التى يعتقدها ، فقد اتفقت كلمة الصوفية إلى أنه يجب

أن يوجه المريد فى بدء حياته إلى التضحية بجهده وماله ووقته فى سبيل الله ، حتى يفهم أن هذا السبيل يساوى ماينفق فيه ؛ وبذلك تزيد قيمته ليتعادل (على الأقل) مع سائر السبل التى اعتاد الإنسان أن يوقف نفسه عليها ،

وطريقتهم فى ذلك أن يكلف بالذكر . والخلوة . واكل الحلال وخدمة الفقراء .

اما الذكر فهو أن يخصص بعض وقته يكرر فيه اسما من اسماء الله حسب مايلقنه المرشد له وقد يكون على انفراد أو فى جماعة . ولكن لابد أن يكون بكثره فى مبدأ الدخول فى الطريق حتى يعمر القلب بذكر الله ، فينقيه ذلك مما يعـــج به من الشوائب والأغيار .

وقد وردت فى القرآن آيات كثيرة عن الذكر وعن ضرورة تكراره فى الغدو والآصال أو بكرة وعشيا أو قياما وقعودا وعلى الجنوب وغير ذلك . وأن ذكر الله أبلغ من الصلاة (التى قد تكون بلا وعى)

● وأما الخلوة فهى أيضا مما ورد فى القرآن إذ كلف الله بعض الأنبياء القيام بها كقول الله لزكريا « آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام » وما كان يقوم به الرسول من الخلوة فى حراء . وهى فى الواقع كسر لثورة الحيـاة والانغماس فيها كل حـــين . فهى كالأجازات التى تستجم فيهـا الروح والقلب ليعود إليهما حياتهما وصفاؤهما

● وأما أكل الحـلال وخدمة الفقراء فهى كناية عن النفقة فى سبيل الله . وقد قيل أنه لا سبيل إلى الفتوح والابصار بالطريق إلى الله ما دام الإنسان يطعم من الحرام . ويجب عليه إذا دخل باب التوبة أن يرد المظالم إلى أهلها وما اغتصبه وظلم فيه وبذلك يحـد الانســان من جشعه وانـكبابه على المال وعبادته له .

ولا يزال المريد يعـــالج هذه الوسائل بإرشاد شيخه حتى ينبت فى قلبه التقدير لله والتبجيل له ، ويصير له فيه موضعا ، فلا يعود مسخراً للأغراض الدنيئة فحسب ، بل تعرف الأغراض العلية سبيلها إليه و بالتدريج وحسب الاجتهـــاد ينقى القلب من الشوائب ويخلص لله ، وإن كان بطبيعة الحال لا تتيسر على الاطلاق هـذه التنقية الـكاملة فهى مستحيلة فى العادة .

الأصل الثانى : الأسوة الحسنة

بينا أن الطريقة العملية لتوجيه الفرد توجيها صالحا ، هى إرشاده إلى نموذج مقيد . يحاول جهده أن يتمثله ويتبع منهاجه .

وفى ذلك أمر الله المؤمنين بالاقتداء بالرسول بقوله « ولكم فى رسول الله أسوة حسنة » وقوله « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » . ولما كان الناس بعد وفاة الرسول لم يشاهدوه عينا . فقد لزمهم أن يقتدوا بمن اقتدوا بالرسول وتشبعت نفوسهم من أصحابه ثم التابعين ثم تابعى التابعين وهكذا .

ويجب أن يلابس هذا الاقتداء ما يغرس محبة الرسول فى قلب المريد حتى يكون اتباعه له عن محبة وإعجاب فيؤتى ثمره ، فلا يكون تقليدا ظاهراً ، بل انطباعاً روحياً وتشرباً باطنيا معنوياً .

وأهم أسباب تقوية هذه الآصرة هو زيادة الصلاة على الرسول والتعظيم لذكراه وكل ما يمت إليه بصلة كاحترام آل بيته ومحبتهم واحترام أولياء الله الذين تشربت قلوبهم بمحبة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

الأصل الثالث : اختلاف المناهج

وقد اقتضى تعدد طباع الناس وتعدد ظروفهم تعدد مناهج الإرشاد ، وطرق التوجيه الصوفى .

فمن الناس من يكون مثلا فى حالة من الترف والبسط لا يقبل معها كثرة الرياضة وخشونة العيش . ولكنه فى الوقت نفسه محتاج إلى ذلك . فيكون طريق ارشاده مثلا إلى توجيهه إلى الشكر لله . فلا يحرم مثل هذا المريد من المتعة والترف . بل على العكس يجسم له ما فى هذه النعم من موجبات الشكر لله . ويكون ذلك بأن يؤمر بالتسبيح بأسماء الله التى تفعم نفسه بالشكر وتشعره بالنعمة كأسماء « الحميد والكريم والمعطى والوهاب والمنعم والجواد » ونحو ذلك . حتى إذا فاضت نفسه بالشكر بدأ مرشده يشعره بخطر حرمانه سبحانه تعالى من نعمته ، وإن الله هو المانع كما هو المانح ، وأنه القابض كما هو الباسط . ويكلفه التسبيح بأسماء تلقى فى نفسه تقوى الله وتحاشى نقمته عليه كأسماء « اللطيف . الرحمن . الرحيم . الودود » ثم يلقى به فى النهاية فى مجال العبودية بعد أن تشربت نفسه بذلك ويكون تسبيحه مثلا بأسماء « الملك . القدوس .

المهيمن . ذو الجلال والإكرام »

وبالعكس إذا كان المريد معسراً يضيق به الحال ، فلا مجال لإدخاله من باب الشكر لأن حاله يكذب مقاله إذن ولا تتجاوب نفسه مع هذه الطريقة . فيمكن أن يدخل من باب آخر كالرياضة العنيفة من الصيام والتقشف والخلوة والذكر الكثير . ولا شك أن ذلك يرضيه ويفرج عن نفسه لأنه بدلا من أن يكون مكرهاً على سوء حاله يكون متطوعاً له ومنتظراً منه الفائدة .

وهكذا فإن لكل طريقة منهاجها وبابها للدخول إلى الكمال . فهى تتطور بالمريد بما يلائم حاله ، وغالباً ما يجرى التوفيق بفعل الله إلى أن يتوجه المريد إلى الطريقة المناسبة لشخصيته . وهو عادة يسأل عن أصول الطريقة قبل الانتماء إليها فإذا صادفت فى نفسه ارتياحاً انتمى إليها. وكذلك إذا وجد المرشد أن نوع شخصية المريد لا يتجاوب مع طريقته فعليه أن يوجهه إلى غيرها والله معطى والرسول القاسم .

* * *

هذه خلاصة للمناهج العملية للطرق الصوفية .

ولا شك فى أنه قد سبق أن تبين أن كل الطرق ملتمسة من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهو قد عنى بتعديد الخطط والمناهج بسبب اختلاف الطبائع واختلاف الاستعداد للوصول إلى الكمال . كما سبق أن تبين أن الطريق لا بد أن يوافق الشريعة ، وأن كل ما خالف أصل الشريعة فهو باطل .

مصطفى كمال وصفى

من حكمة الشعر

يا أيها المعدود أنفاسه ... لا بد يوما أن يتم العدد

لا بد من يوم بلا ليلة ... وليلة تأتى بلا يوم غد